النص الروائي وديناميةالتخييل رواية "الماضي البسيط" و"الحضارة أماه" لإدريس الشرايبي

Narrative text and dynamic imagination
The Novel "The Simple Past" and "Civilization Mother" by Idriss Chraibi

الأستاذة د/ فاطمة الزهراء عقال

جامعة المدية قسم اللغة والأدب العربي

البريد الالكتروني:

تاريخ الإرسال: 2018/11/20 تاريخ القبول:2019/05/03 تاريخ النشر: 2019/09/21

ملخص

إنّ الفكر النقدي بداية من أفلاطون إلى سارتر، ومرورا بـ أوغسطين، والفكر المدرسي وديكارت، وفكر عصر الأنوار دأب على الإنقاص من التصوير المتخيل والحط من قيمته، عن طريق تحويله إلى ضرب من التذكر والنسخ، أو إلى نوع من التصورات الدنيا التي لا ترقى في أي حال من الأحول إلى مرتبة التصورات العقلية المنطقية، وقد استطاع النقد المعاصر تخليص الصورة « Imagination من ربقة العقلانية والواقعية، واعتبر التخييل قوة دينامية من أعظم قوى الطبيعة الإنسانية، حيث لم يعد ينظر إلى الصورة باعتبارها مجرد موضوع Objet أو بديل له، بل باعتبارها حقيقة إنسانية تختلف طبيعتها عن طبيعة التصور وحدوده.

الكلمات المفتاحية :

رواية -الواقع -المجتمع -الأجناس الأدبية –إيديولوجية- التخيلات- ثقافة- التفكير- فكر- سيرة ذاتية- الشخصية الروائية

Summary

In many cases, the writer does not speak in his name, but authorizes an imaginary person, who takes his place in the process of storytelling, and this is what we see in most of the work of the Moroccan writers, especially those who write in French, in the so-called biography of biographies such as Ahmed Safrioui and Idris Shraibi.

The novel "The Simple Past" by Moroccan writer Idriss Shraibi occupies a special place within the French-language narrative fabric, accompanied by the novel "Civilization Ma" by the same author. These two rich and varied styles of writing are constantly present in the French-style cultural structure. For one fact, each one illuminates the other.

Keywords:

Novel - Reality - Society - Literary races - Ideology - Fantasies - Culture - Thinking - Thought - Biography - Fiction

في الكثير من الأحيان نجد الكاتب لا يتكلم باسمه وإنما يفوض شخصا خياليا، يقوم مقامه في عملية القص، وهذا ما نلمسه في معظم أعمال الكتاب المغاربة وخاصة الذين يكتبون باللغة الفرنسية، ضمن ما

يسمى بأدب السيرة الذاتية أمثال أحمد صفريوي وإدريس الشرايبي والطاهر بن جلون وغيرهم. تحتل رواية "الماضي البسيط " للكاتب المغربي الفرنكوفوني إدريس الشرايبي مكانة مميزة داخل النسيج الروائي المكتوب باللغة الفرنسية ورواية " الحضارة أماه" لنفس الكاتب، حيث نجد أن هاتين الروايتين الغنيتين والمتنوعتين بأساليب الكتابة تظلان حاضرتين باستمرار في البنية الثقافية ذات التعبير الفرنسي، وتمثل الروايتان وجهين لحقيقة واحدة فكل واحدة تضيء الأخرى. تطرح رواية الماضي البسيط مجموعة من القضايا تحركها علاقات متعددة ترتكز على تواصل غير متكافئ بين أفراد أسرة السارد في تصوره لعلاقة الأب بأبنائه التي تتميز بالسلطة المفرطة، والتحكم في جميع أفرادها، صدرت الرواية سنة 1954 ومن خلال وصف الكاتب لعائلة الحاج فردي التي قام بتشريح بنياتها في شكل مفصل ودقيق، إلى حد أن الرواية اعتبرت سيرة ذاتية للكاتب نفسه، حتى أنّبطلها هو إدريس فردي، وفي رواية الحضارة أماه جاءت للبحث عن الإجابة المقنعة لسؤاله الوجودي حيث يحاول الابن مساعدة أمه للخروج من عزلتها. عُومل الشرايبي في بلده كأجنبي دائما ليس بسبب مظهره الذي يبدو فيه بصورة غريبة عن وسطه فحسب، وإنما لكون شخصيته، أيضا، تتمرد على النموذجية والامتثالية، ولنستحضر، في هذا الصدد، ما يقوله عن نفسه بسخريته المعتادة « أينما حللتُ، يُتعامل معي، بهذا الرأس الذي وهبني إياه الله على مقاسه، كما لو كنت أجنبيا! أينما حللتُ أشعر بأنني في بيتي آمنا، وذلك لأنني لم أحس أبدا بكوني غريبا عن ذاتي... يُروَّجُ بأن هناك أزمة للهوية. إنه مشكل مزيف. لا شك أن الحراك الذي يحصل في العالم العربي قد انعكس ولو بشكل ما إيجابا على الأجناس الأدبية وبشكل خاص على الرواية، خاصة ونحن نعلم أن هاجس الروائي الأول هو الإنسان هذا الكائن الذي يصارع من أجل الحفاظ على القيمة الإنسانية، مجسدا إياها في الرواية من خلال السيرة الذاتية للأديب، ولا يمكن فصل الرواية المكتوبة باللغة الأجنبية غير العربية عن هذا الاتجاه، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتوحد كل الأشياء في مجتمع ما فهذا يكتب باللغة العربية وذاك يكتب باللغة الفرنسية وهذا ينتمي إلى إيديولوجية يسارية وآخر إلى غيرها وهكذا تكون المجتمعات متنوعة في تركيباتها البشرية ولاسيما النخبة فيها.

وكما تكون الرواية سيرة ذاتية عن كاتبها فقد تكون أيضا سيرة للمجتمع الذي يعيش فيه أو الذي يتحدث عنه، فالكاتب جزء من المجتمع قبل كل شيء، فهو عندما يفكر أو يحلم أو يتخيل إنما يفعل ذلك من واقع مجتمعه الذي يعيش فيه أو يعبر عنه، فالمبدع لا يكتب إلا نفسه إما عن آماله أو طموحاته أو إخفاقاته ...إنّ مضمون العمل الأدبي العميق موجود لدى فكر الجماعة التي ينتمي إليها المبدع أو يعبر عنها ووجود هذا

المضمون العميق قبلي، سابق على وجود العمل الأدبي في حدّ ذاته.[1] ونجد أن أغلب الذين يكتبون باللغات الأجنبية لم يبتعدوا عن الخط الذي رسمه الأدباء العرب في رواياتهم ومن ذلك ما كتبه الكاتب المغربي **إدريس الشرايبي**.[2] وقد اعتبر كثير من النقاد أن الكتاب في المغرب الذين يكتبون بلغات غير العربية قد أضافوا إلى الأدب المغربي إضافات نوعية. ومن خلال هذه الورقة البحثية سنحاول تسليط الضوء على أديب مغربي عرف بقدرته على التعبير وإضفاء صفة المرح في كتاباته لأنه شخصيا يتميز بصفة الرجل المرح، و في روايته الحضارة أماه أراد إدريس الشرايبي أن يجعل نفسه بطلا في روايته مع أخيه من خلال محاولتهما تقديم النصح والمساعدة لأمهما الأمية الريفية المحافظة للخروج من العزلة التي تعيش فيها ومن التقوقع والتشبث بالماضي والتقاليد البالية، ومحاولة الإطلاع على العالم الخارجي وما أحدثته الحضارة والعولمة من اختراعات وأفكار جديدة لم يكن لها مكان في الماضي القريب. ومحاولة مقارنة هذا الجديد مع الماضي الذي ظلت حبيسة فيه مع زوجها مدة طويلة من الزمن بسبب العادات والتقاليد التي فرضت عليها عنوة. إن حضور الشخصيات وفقا لمفاهين النصوص الروائية وظيفي في المقام الأول فهي تنتمي إلى النص انطلاقا من انتمائها إلى نسق إيديولوجي ليصبح حضورها فيه مظهر من مظاهر الإيديولوجيات، فالشخصية قطب تلتف حوله وتتبلور منه مجموعة القيم الدلالية، فتكون ذات طبيعة مرجعية أو ثيمية. وبشكل عام فإن الشخصية الروائية تظطلع بوظائف عدة من أبرزها أنّ تكون عنصرا من عناصر المشهد الوصفي، أو شخصية مشاركة في الحديث أو ناطقة باسم الكاتب، ولكن لابد للشخصية الرئيسية من أن تكون متميزة بوجودها وعواطفها وبنظرتها إلى الآخرين وإلى العالم المحيط بها، و بناءً عليه يمكن التفريق بين نوعين رئيسيين من الشخصيات يمكن رصدهما انطلاقا من فاعليتهما ومشاركتهما في الأحداث، الأولى بطولية نامية ومتطورة، والثانية نمطية ثانوية وسطحية.[3] ولم تكن مشكلة اللغة بالنسبة لـ الشرايبي عائقا في بسط القضية لأن الأدب عنده كما يذهب إلى ذلك رنيه ويليك "نظام اجتماعي يصطنع اللغة وسيطا له، واللغة

نفسها إبداع اجتماعي وحين يكون الأدب تمثيلا للحياة فإن الحياة ذاتها حقيقة اجتماعية[4] ومكانة الشرايبي في المجتمع من خلال سيرته الذاتية والتخيلات المبثوثة في كتاباته الروائية، هو بصفته الاجتماعية قد تلقى درجة من درجات الاعتراف يخاطب جمهورا من الناس يحدد علاقاته بهذا المجتمع، ذلك أن الأدب وظيفة يقوم بها "فالنظم الجمالية لا تنهض على أساس النظم الاجتماعية، ولا تعد جزءً من النظم الاجتماعية لأنها هي نفسها نظم اجتماعية من نمط محدد، ووثيقة الصلة بباقي النظم.[5]

وقد يكون من الأمور بالغة الأهمية أن نشير إلى ما نبه إليه النقاد من أنّ البحث في وظيفة الأدب كان يتم دائما في إطار الدفاع عن الأدب أو الاعتذار عنه، فقد لجأ إليه أرسطو في إطار الدفاع عن الشعر ضد الحملة الأفلاطونية، ولجأ إليه نفر من شعراء عصر النهضة دفاعا عن الشعر ضد الحملة الأفلاطونية الجديدة، ولقد اضطر الرومانسيون فيما بعد إلى أن يسلكوا مسلكا مختلفا فشددوا على فكرة الفن للفن أو الشعر للشعر، بينما نجد للأدب وظائف عدة وهي وظائف تتفق مع طبيعته الخاصة التي تبين أن الأدب هو الوسيلة أو الوسيلة هي الأدب الحق وهذا يعني أن النتائج الفردية والاجتماعية لأية وسيلة من الوسائل تتوقف على تغير المقياس الذي تحدثه الحياة الجديدة. وكل امتداد في حياتنا على حد تعبير **ماكلوهان**[6] شاعر العصر الالكتروني ذلك أن الأدب في أية وسيلة من وسائل الاتصال بالجماهير بغير المقاييس أو الإيقاع أو النماذج التي تحدثها هذه الوسيلة في الحياة الإنسانية، فالوسيلة كما يقول **ماكلوهان** كذلك هي التي تشكل وتتحكم في مقياس النشاط الإنساني وعلاقات الناس بعضهم ببعض، والواقع أنه من مميزات الوسائل أن مضمونها يخفي حقيقتها. وبناء على هذا الفهم فإن السيرة الذاتية في الأدب وفي الرواية بخاصة تندرج ضمن وسائل الاتصال وفي القالب الثقافي الذي تعمل في داخله، و مضمون السيرة الذاتية عند الشرايبي قياسا على ما ذكرنا لا ينفصل عن الحياة فـ الشرايبي يصرح ضمنيا في رواياته أن الباعث الأول للكتابة هو انفعال الإنسان بمجتمعه ورغبته في التعبير عنه تعبيرا صادقا مخلصا حتى يمكنه التأثير في الغير ليغير سلوكه إلى الأفضل،

يقول، أعتقد أنني لم أتجاوز هذا الاتجاه وأني أحاول أن أعبر عن نفسي كجزء من المجتمع الذي أعيش فيه...عن مجتمعي كمجموعة من الناس وأنا واحد من هذا المجتمع، ضمن الآلاف أو الملايين الذين يعيشون فيه، فإذا كتبت شيئا فأنا أعبر عن هذا الإنسان. يقول الشرايبي: **شعور بالألم والمرارة ينتابني لشدة ما صارعت، في سبيل شيء كاللاشيء: في سبيل أن أكون وأن يكون لي، وأن أصنع لنفسي وجودا فأحسن صنعه-كل شيء ، أجل كل شيء يفنى، بفنيه هدير البحر، فلا يبقى سوى عظيم الأسى، أسى الماضي، زمن كان كل شيء بداية وكل شيء أملا، أنه الميلاد، ميلاد الذات للذات، على عتبة العالم...**[7]

بهذه الكلمات يبدأ الشرايبي روايته الحضارة أماه، ومن ذلك يبين مكان مضمون الرسالة الأدبية ومتلقيها في رؤيا الشرايبي الإبداعية، من خلال تحقيق المشاركة الوجدانية الفعالة، التي تجعل أدبه ينتزعنا من أس ما يسمى بالتمركز الذاتي لكي يحقق بينه وبين الآخرين هذا الضرب من تناغم الوجداني عن طريق التذوق الفني، فالتربية الجمالية هي بلا شك الوسيلة الناجحة التي يتسنى لنا عن طريقها أن ننتقل من أخلاق جزئية محدودة إلى أخلاق عامة كلية، إذ تحيا الأنفس في أعماق ذواتنا. لا تذهب رواية الحضارة أماه إلى مركز الآخر، "**باريس**" أو غيرها من المدن الغربية، ولا توقف نفسها عند المثقف، فإدريس الشرايبي يبني روايته ومعظم رواياته في الوطن الذي يبدو أنه فقط عمق الريف والبلدة، وهذا التحديد للوطن يساعد على الأخذ به الإشارات العابرة إلى الدار البيضاء والرباط...إنّ الحضور المباشر وغير المباشر لمدن الوطن هو مثله لمدن الغرب، وبالطبع سوف يترتب على هذا الاختيار لمكان الرواية عديد القضايا والأحداث التي تشكل بالمعالجة الروائية التي توفرت على يدي الشرايبي حيث تجعلنا نرى التخلف والمجتمع بجميع طبقاته وفي زمن محدد ذلك كله هو الإجابة عن سؤالنا الذي نتوخى أن يكون كاشفا للرواية، كيف تجسدت روائيا إشكالية السيرة الذاتية في المجتمع المغربي بالنسبة لإدريس الشرايبي من خلال رواياته. ونكتشف في روايات الشرايبي تلك القدرة البارعة في التعبير عن تجاربه تعبيرا ينقل انفعاله وموقفه إلى الآخرين، الأمر الذي يذكرنا بنظرية "**تولستوي**" في عدوى الفنون، حيث تزيد القدرة الاتصالية إذا كان الشعور الذي ينقله الفن أكثر غرابة،

وكانت أداة النقل أكثر وضوحا، وكان الفنان أكبر إخلاصا، أي كان تأثيره أكبر بالشعور الذي يحاول نقله من خلال تجاربه وتمثل شخصيته في العمل الأدبي، وفي كل عصر بل في كلا جيل يحاول الكتاب الأفذاذ ورجال الفكر الأحرار تنشيط مجتمعاتهم وتجديد قيمها، كما يحاولون إيقاظ ضمائر معاصريهم وحملهم تعديل ساعاتهم حتى لا يتجاوزهم الزمن ويصيبهم الجمود، وكثيرا ما يثير هذا العمل المتمثل في الخلق الأدبي والإبداع الفني والتجديد الفكري حفيظة الناس ويجلب سخطهم لأنه يقلق معتقداتهم وينغص عليهم طمأنينتهم وقد يعبر عن كسلهم وقصورهم وعجزهم، بل إنّ تاريخ الحضارات يكاد يكون انعكاسا لهذا التقابل بين الفكر الحر والمجتمع المحافظ، بين قوى التقدم الحية وعناصر الرجعية المتجمدة، وقد يكون كما عبر عنها " **ألبير كامو** "إن اتجاه تاريخ المستقبل لن يكون ما نعتقد أنه سيكون، إنه يتمثل في الصراع بين صولة الحق وخنق حرية الفكر. وكذلك أراد الشرايبي من خلال روايته الحضارة أماه مبرزا سيرته وفكره خاصة اتجاه الحياة الجديدة المتجددة دائما، فهو يرى دائما أن الكاتب إذا صدم معاصريه في آرائه، يستطيع رغم كل شيء أن يعيش ويستطيع بالخصوص أن يعبر عن كل ما يشكل بالنسبة له حرية الفكر.

الحضارة أماه هي: رواية عن فتاة تعمل خادمة في بيت عائلة غنية، عمر الفتاة ثلاثة عشر عاما يتم تزويجها من رجل غني، في عمر والدها، تنجب منه ولدان، الراوي ونجيب، هذا الزوج الغني نجده لا يبخل على زوجته بأي شيء، وفر لها الهاتف، والمذياع والمدفأة وماكنة الخياطة، بمعنى آخر جعلها تعيش حياة الأرستقراطيين، كبر ولديها، فبدءً يعرفانها على الحياة خارج جدران البيت، اصطحبوها إلى السينما، اشتروا لها ثياب حديثة وحذاء بكعب عالي، كل هذا بعيدا عن دراية الأب الذي كان كثير السفر، إلى أن تتم مكاشفة الأب بما يجري في المنزل، وبعد أن يعرف بأن ابنه "نجيب" كان يزور الشهادة المدرسية، وأنه في حقيقة الأمر لم ينهي تعليمه المدرسي، تبدأ المواجهة بين الأب من جهة وبقية أفراد الأسرة من جهة ثانية، عندها يستسلم الأب للواقع الجديد تسافر الزوجة ونجيب إلى فرنسا، وبهذا تكون الأم قد خرجت عن المألوف وتجاوزت سلطة الزوج والمجتمع إلى ما هو حلم لكل امرأة شرقية.هذا ملخص الرواية، التي تعد من الروايات القصيرة نسبيا، فعدد صفحاتها يقارب المائة والخمسون صفحة، لغة الرواية شيقة، حبكتها متماسكة، طريقة عرضها ممتعة،

تلامس واقعنا في المنطقة العربية، مما يجعلها قريبة منا وتدخل إلى الروح قبل العقل، زمن الرواية النصف الأول من القرن العشرين، الشخصيات التي تتحدث تتناولها أربع شخصيات، الراوي ونجيب والأم والأب، مكان الحدث قرية فلاحية متواضعة ثم مدينة الجديدة القريبة من الدار البيضاء المغربية[8]. يبدأ الكاتب روايته وكأنه يجسد شخصيته في الرواية حيث يتقمص دور نجيب الابن الأكبر: عدت من المدرسة، وألقيت بقمطري في السقيفة وصحت بصوت هو صوت الدلالين: -عمت صباحا يا أمي ! Imprégnée le matin, ! maman

قلتها باللغة الفرنسية. هذا هو ملخص الرواية لكن الذي نكتشفه من خلال هذه الرواية هي نظرة الكاتب للحياة ولدور المثقف في تغيير الأحوال من نظرة ضيقة يسيطر عليها الخوف والتمسك بالتقاليد إلى نظرة يحذوها التفاؤل وحب الاطلاع على المستقبل، تلك هي نظرة الكاتب.

إدريس الشرايبي أعلن في رواياته ضمنيا أنه لا ولن يتخلى عن ثقافته في كل ما يكتب، ولا عن مغربيته حاملاً معه تلك الثقافة وهو على يقين من أنها تفيد ثقافة أناس آخرين، عندما تنقلها إليهم بلغتهم، منطلقاً من أن الإنسانية في ذاتها، ثقافة كبيرة تتكلم أكثر من لغة، وتعبّر عن الأشياء بأكثر الصيغ اختلافاً، لكن الأشياء التي تعبّر عنها تلك اللغات والألسنة، واحدة لا تتغير، ولا تحكي غير القيم الإنسانية النبيلة والأبدية. ظلّ الشرايبي من خلال كتاباته التي ميزت الفن الروائي العالمي من بابه الواسع محكومة إلى حد كبير بالسخرية الجادة والتهكم من الواقع. ومن الكلمات البليغة التي ترمز إلى فلسفة السخرية المعهودة في خطاباتها و التي ترمز أيضا إلى شخصية الشرايبي ما قاله: **(لا تأخذوا أبداً أحداً على محمل الجد ولا حتى أنا).** ما ذكرناه بالنسبة إلى مبدع متمرد ومفكر ثائر اختار الكتابة الروائية أداة لمناهضة كل أشكال الاستلاب ومظاهر التخلف، معتمداً في ذلك على أسلوب أدبي رائع وقلم يروم أساساً إلى إيقاظ الوعي الاجتماعي لدى القارئ. فالأدب عند الشرايبي نشاط فكري، وهو تصوير لانتصار الإنسان والحياة، ابتعاد الأدب عن طغيان السياسة عليه وعن

خضوعه لها أمر ضروري، بل ضرورة فكرية، فالسياسة يجب أن تهتدي بنور الفكر لا العكس، وحرية الأديب عنصر ذاتي في نهضة الأدب. بينما التوفيق بين التراث والمعاصرة، أو بين القديم و الجديد، والماضي والمستقبل، ضرورة إنسانية، فإذا ما تمسكنا بلغتنا وطوّرناها لتعبر عن كل المفاهيم واستطعنا أن نقتبس من العالم المتقدم أسباب القوة، وأن نضع مناهج جديدة أمكن لنا أن نصنع حضارة الغد، هذا الغد الذي لم يعد أمرا سحريا، بل علينا أن نصنعه نحن بفكرنا، ودائما لابد من دعم النهضة السياسية بنهضة فكرية و ثقافية على أن سبيل لوصول إلى التقدم تختلف باختلاف عبقرية الشعوب، هذا ما رام إليه كاتبنا في الماضي البسيط، رواية أحدثت كثيرا من اللغط والهرج في الأوساط الفكرية والثقافية وخاصة في المغرب نظرا لما حملته من جرأة منقطعة النظير على الفكر والثقافة السائدة في أذهان الناس وخاصة الذين يسكنون القرى والمداشر البعيدة النائية.

روايات إدريس الشرايبي تمدنا بتصورات مركزة فهي لا تأتي من فراغ، فهي حوصلة منطق فكري منبثق ممّا هو مضمر أو راسخ أو دافع من مفارقات واقع وإنسان وتاريخ ومرحلة، من غير أن يعترف الشرايبي أن الكتابة شكلت بالنسبة إليه منعطفا حاسما في حياته، فإننا نستخلص من عالمه الروائي تطلّعا للعديد من الأحاسيس والمواقف والرغبات التي تجهر بها شخصياته الروائية، بخطاب ظاهر حينا ومضمر حينا آخر، إفصاحا عن حالة، وإدانة لمسكوت عنه. من هنا قوّة العبارة عند الشرايبي، وعنف المتخيل لديه. هذا وصفٌ للكتابة لا حُكم قيمة، وهو لا يعني أنها كتابة خالية من الوشي والأدبية لمجرّد تعلّقها بالفضح والجرأة، بل إن بلاغتها كامنة في تخفيف النص (والحكاية) من المجاز والرّمز، وتوجهه إلى التعبير المباشر بفطنة العارف والمُجرّب والمُنصت لنبض الواقع ومشاعر النفوس، باختصار إنها تحكي مسيرة وفكر وثقافة رجل محنك. هذا ما نجده في رؤيا الشرايبي حين يدعو في تحديد مسؤولية الكاتب إلى أنّ الرقي بالعقل الذي وصل ليه الإنسان في هذا العصر ومدى توسيع معارفه "غن الرقي العقلي الذي وصل إليه الإنسان في هذا القرن وتوسيع دائرة معارفه ومعطيات الحياة المعاصرة الجديدة...كل ذلك سلط نورا جديدا على مقولة أفلاطون الشهيرة: "إن الدولة شخص كبير كما أن الفرد دولة صغيرة". فلنا أن نتساءل: هل الكاتب مسؤول هو أيضا عن كل شيء

أمام كل إنسان؟ وهل لكتاباته أثر في واقع الناس وخطورة على مصيرهم؟ هل تفعل الكتابة فعلها في الدنيا وفي الناس فتنفعل بها الدنيا و ينفعل بها الناس؟ وما مدى هذا الانفعال؟ تندرج رواية الماضي البسيط ضمن إستراتجية تعمل على التصدى، باسم الكونية والإنسانية، لتنصل الاستعمار والمكيال المزدوج الذي يتعامل به اتجاه الشعب (ردت له عملته: الحرية والمساواة والأخوة) (Reçu sa devise: liberté, égalité et fraternité) ولما يماثلهما عند المغاربة يمثل "السيد" "السلطة وأشكالها" الذين يتشبثون بالدين ويتسترون وراءه، ويستعملون العادات والتقاليد لإرساء دعامات نفوذهم، ودوام إخضاع الأطفال والنساء وباقي المحميين من الداخل. تقطع رواية الماضي البسيط le passé simple دابر ما سبقها، وتتصدى، بجرأة، للاستعمار ولكل ما هو قابل بأن يُستعمر، والتاريخ الأدبي منطق الكتابة المتجددة وعالما فكريا مغايرا لما هو سائد. ومن ثمة، فهي تدشن عهدا جديدا للثقافتين المغاربية والمغربية الجديدتين سواء أكتبت باللغة الفرنسية أم باللغة العربية أم بلغة أخرى. لذا فإنه من السهل بعد هذا على المتصفح لفكر الشرايبي ككل، أن يلمس هذا التوازن في جميع المواقف من قضايا تشغل بال جميع أل الأرض مثل الأصالة والدين والأدب والحرية.. .ومن السهل عليه أيضا أن يدرك مدى الوضوح الذي يعالج به الشرايبي مشاكل الثقافة وفنون الأدب وشؤون الوطن وغيرها...

إن رواية الماضي البسيط، التي نُشرت سنة 1954 أي قبل أن تصدر نجمة لكاتب ياسين بسنتين، شكلت قطيعة مع التقاليد والضغوط الاجتماعية التي لم تترك إلا هامشا ضيقا للفرد الذي كان يُتعامل معه بوصفه عنصرا من الجماعة، وليس باعتباره كينونة مستقلة تحمل قيمة في ذاتها خارج العصبة العائلية والقبلية والجماعية . فضلا عن ذلك، تعتبر رواية الماضي البسيط أول رواية تحكي قصة عن تكون الشخصية وتفردها يكد إدريس فردي من أجل إثبات ذاته كفرد، بالمعنى الحديث للكلمة، في مواجهة عائلة أبوية، ومجتمع يعيد إنتاج معايير ثابتة وتقاليد متحجرة وضغط اجتماعي خانق. هذا الخوف من سجن الفكر هو الذي قاد الشرايبي في روايته وهو في الحقيقة خوف من الفلسفة بمعناها التقليدي وانفلات منها إلى طلاقة الفكر ومرونته واتعاظه بالواقع وبمقتضيات الحياة، وإعلان لنهاية عهد الفلسفة المكبل المقيد، وفتح جريء

لإحلال مد الفكر اليقظ المتحرر المنساب في عوامل الحق والبناء مكان سجن المذاهب المقننة المحنطة. كل ما سبق يبين أن كتابة هذه الرواية ونشرها كانا ثمرة تغيير حضاري وحدثا تاريخيا. يُعد إدريس الشرايبي مجددا فيه، ولهذا يمكن أن نعتبره كاتبا كبيرا. فهو قد أحس بظاهرة اجتماعية وثقافية وعبر عنها إبان ظهورها وقبل الآخرين. علاوة على ذلك، لا يمكن للسياق الثقافي والسياسي والاجتماعي والإيديولوجي أن يضيء كتاب الماضي البسيط. على العكس، يعاكس هذا النص الأول هذه السياقات كلها ويتجاوزها . ولا يمكن أن يُتلقى على نحو إيجابي في وقت كان فيه التفكير السياسي والجماعي على أشده. كان النضال من أجل الاستقلال يستقطب كل الجهود. وغدت هذه الأولوية الحصرية للجماعة تستبعد المشكلات الأخرى، بما فيها مشكلة الفرد على وجه الخصوص. في هذا الوقت بالذات، لم تستسغ الجماعة أي نقد داخلي. فهي لا تؤثر إلا ما يعطي انطباعا جيدا عنها، وهذا التوازن في الطرح يقتضي التعديل كلما دعت الحاجة إلى ذلك وكلما اختفى الهدف في ضباب الأغراض الزائفة واختلطت السبل في غمرة الطفرات وجهنم الأفكار وزائف الفلسفة وهو إلى ذلك رياضة، وصاحب الفكر رياضي قولا وفعلا. ينسج إدريس الشرايبي علاقة معقدة مع الرواية. وفي مجموع أعماله، وليس في رواية » الماضي البسيط « فحسب، يلتحم الواقع بالواقع إلى حد يصعب الفصل بينهما. من غير المجدي أن نجْرد حرفيا ما يتعلق بالواقع وما يمت بصلة إلى الإبداع الأدبي. يتغذى التخييل بملاحظة الواقع وبالإحساس وبالتجربة المعيشة، ويسهم كل عنصر من هذه العناصر في ازدهاره. تنخرط كتابة إدريس الشرايبي، التي تبتعد عن جاذبية الملكية، في البحث عن الكائن والمطلق. يبحث الكاتب عن الطريق المفضي إلى ما هو جوهري، في منأى عن مظاهر الواقع وتجليات الواقعية. ليس **إدريس فردي** صورة مطابقة لإدريس الشرايبي. إنه الأكثر واقعية من طبعه، إنه إدريس الشرايبي الذي يؤمن بواقع رغباته، ويجسد قيمه المزدوجة وسعيه إلى المطلق في كائنات ورقية في منتهى الواقعية والموجودة من تلقاء ذاتها. تتمثل وضعية الراوي إدريس الشرايبي في عالم التحليل النفسي أين يستطيع الفرد أن يحكي ذاته من تاريخها وذاكرته المحفورة فيه، وفي عالم المعيش اليومي أين يحوّر ويقوّم طرائق الحكي وإعادة تشكيلها سردا إذ لاشيء في محل ثابت ضمن هذه الهوية التي هي موضوع قراءات متعددة من قرّاء متنوعين وكذا هي موضوع سرد

متبدّل من ذات السارد الحاكي حتى وإن جاءت هذه المسرودات متقابلة أو متناقضة، فهي مكوّنة من تاريخ الوقائع والمؤرخين ومن مهارات تخييليّة. يسعى الشرايبي وهو يضع الأسماء لشخصياته أن تكون متناسبة ومنسجمة بحيث تحقق للنص مقروئيته وللشخصية احتمالاتها ووجودها، ومن هنا نجد مصدر ذلك التنوع و الاختلاف الذي يطبع أسماء الشخصيات الروائية عند الشرايبي، وهذه المقصدية التي تضبط اختيار الكاتب لاسم الشخصية ليست دائما من دون خلفية نظرية، كما أنّها لا تنفي القاعدة اللسانية حول اعتباطية العلامة، ومن الواضح أنه ليس هناك ما يجبر الروائي على وضع أسماء شخصية لأبطاله، فهو بإمكانه مثلا أن يطلق عليهم ألقابا أو بألقاب القرابة كالعم والأب والأم...وفي الجملة فإن معظم المحللين البنيويين للخطاب الروائي قد أصّرّوا على أهمية إرفاق الشخصية باسم يميزها و يعطيها بعدها الدلالي الخاص.[9] يبحث الراوي بالاستعانة بهكذا لهوية منفذا يتخلص فيه من الصراعات "الهُوَويّة" التي يمكن أن تعرض له في وجوده وكذلك من النقص الحاصل من التناقضات التي يحياها أبدا دائما.[10] تمثل الروايتان وجهين لحقيقة واحدة. فكل واحدة تضيء الأخرى. ومن ثمة يتكامل بُعدا الواقعية الاستيهامية في الماضي البسيط (انتحال الواقع بغربال المتخيل) وحلم اليقظة في الحضارة أماه!. فبعد مضي ثمانية عشر عاما عن الماضي البسيط أصدر الشرايبي الحضارة أماه!: إن اختلاف الروايتين ناجم عن المجهود الشخصي الذي بُذل فيهما وعن عامل الزمن. كما لا يجب أن نغفل أن حدثا وقع بين الإصدارين فغير كثيرا مجريات الأمور، وهو موت والد الكاتب. تغيرت الأزمنة وتبدلت صيغ التغيير. فبمجرد أن زحزحت صورة الأب وارتدت إلى الدرك الأسفل، تبين مدى ملائمة إعادة توزيع التمثلات وعلائق القوة داخل العائلة والمجتمع، وترقُّبِ الزمن الذي ستتمتع فيه المرأة والأم بحقوقهما. تسكن في قرار الحضارة أماه! سكينة ما، وروح شيطانية مثيرة، وحماس نضالي غير معهود. تمثل الرواية، في الآن نفسه، حقيقة سوسيولوجية (لم تكترث الإرادة السياسية إلا مؤخرا بتنمية العالم القروي وبفك الحصار المضروب عليه) وعنصرا دالا في رؤية الكاتب الكَلِف بسبر أغوار ما هو جوهري فهو يعبر بواسطة هذا الوصف عن تعلقه بالإنسانية الحق والخام لتفكيك القوالب، وتشبثه بمواطنيه

المتضامنين فيما بينهم والمحتكين بواقع الحياة والموت، والمتشبثين بأرضهم. فهم يكدون من أجل سد رمق عيشهم وضمان بقائهم، ويعتمدون على نمط الحياة الرعوية في منأى عن تأثيرات المجتمع الاستهلاكي وإغراءاته، وعن انشغالات الساسة والحكام والنخب الثقافية وهو، في الآن نفسه، علامة على نوع من الحنين إلى نقاوة الأصل التي تَسِمُ مؤلفات الشرايبي كلها.هنا يمكننا أن نكتشف سيرة ذاتية للكاتب ونكتشف أيضا وظيفة الكاتب وخطورتها، فهو يسمي الأشياء بأسمائها ويكشف عنها كما يقول "سارتر" فيؤثر في مواقف الناس وفي علاقات الناس، إذن فهو مسؤول عن كل ما يقول أي عن كل ما يفعل و حتى عما لم يقل لأن سكوته في ظرف من الظروف وتجاهله"الحالة" في وقت من الأوقات له معنى ربما كان أبلغ من الكلام.ولسنا هنا نبحث عن تعاليم، ولا عن وثائق نفسية، ولا عنه صور فوتوغرافية، كالحة أو منمقة للواقع، فالروائي لا يقدم ألبوما للصور ولا دروسا، لكن الروائي أيضا يبث إيديولوجية، نظرات ، رؤية، مما يتصل بالعلاقات الإنسانية ، بالإنسان ومحيطه الاجتماعي والطبيعي أيضا، بالتاريخ، وهذا الذي يبثه الروائي ليس إلهاما ولا ذاتية خالصة، إنه إنتاج فردي اجتماعي معين، وهذا الاعتبار لا يقلل من أهمية استقلالية النص وموضوعيته، هذا الاعتبار ييسر تشخيص وعي النص ومبدعه، وصولا إلى الوعي الجمعي، ولذلك يبرز السؤال النقدي الهام عن الرؤية التي ينطوي عليها النص، عن الموقف أو المواقف، عن خطاب النص وإيديولوجيته، وهنا ينبغي الاحتراز من تحويل السؤال عن رؤية مبدعه إلى معادلات ذهنية يفسر بها الناقد الاتصال بين المجتمع الروائي والواقع، إن السؤال هنا يتصل بما للنص من دلالة على الزمان والمكان والمحيط، على الإنسان في تاريخه، على التاريخ، السؤال هنا يتصل بإشكالية النص على مستوى المتخيل والواقع، ولذلك فهو سؤال فني، لا كما قد يتوهم على أنه سؤال مضموني وحسب.[11]هكذا كانت نظرتنا في كتابات إدريس الشرايبي، فهي كما تعبر عن ذاتية أيضا نجد فيها انسجام هذا العالم رؤيته، وعلى النحو الذي يستجلي جمالياته ويحدد هويته على ضوء دلالاته التاريخية، والقول هنا بالاحتمال والترجيح لا يعني تسيب الحدود ولا المجانية، فإذا كان النص تعبيرا عن الذات فإن لهذا التعبير مؤثراته ومرجعياته وفي أحيان كثيرة يقينياته

أيضا.في ظلّ طبيعة العصر الحديث ذي النزعة العلمية لم يعد غريبا أن تتجاوز الدراسات الحقل المعرفي نفسه إلى ما وراء ذلك الحقل، من حيث آليات اشتغاله، وطريقة التفكير التي تسيره حيث ظهرت دراسات تجاوزت اللغة لتعنى بما وراء اللغة وتجاوزت النقد لتناقش ما وراء النقد، فإذا كان النقد يعنى بمتابعة الإبداع والتنظير له فقد شهد القرن الأخير ولادة وعي آخر جديد، يسعى إلى التفريق بين النقد بصفته موضوعا ونقد النقد بصفته فعلا ويختبر ذلك الموضوع ويدرسه.[12]

وقد كان الوعي بالعملية الإبداعية للرواية واضحا في تصورات الروائيين ومنعكسا في نصوصهم الإبداعية، خصوصا في ظل ما يحققه الجنس الروائي من قابلية لتجسيد ذلك الوعي، غير أن ما سيكون محل العناية هو الوعي والمتخيل الإبداعي المعبر عنه داخل النصوص الروائية، من إشارة الرواية إلى ذاتها، ومناقشة لقضاياها وعناصرها وأطراف الخطاب فيها، وما إلى ذلك أي ما يمكن تسميته ما وراء الرواية[13] وهذا ما وجدناه معبرا عنه في روايتي إدريس الشرايبي الحضارة أمّاه والماضي البسيط. إنّ أزمة الكتابة ليست إلا صدى لأزمة المجتمع التي عكستها الرواية الجديدة فازدهرت من خلالها الروايات. إن الحديث عن كتابات الشرايبي يكاد يكون خوضا في تلك العلاقات البشرية التي تربط أبناء المغرب و تحدد مصيره باعتباره لحمة واحدة غير قابلة للفصل، وعندما تكون هذه الملامح الخاصة فإنها تخضع دائما لتلك المؤثرات الخاصة والتي تتواجد دائما بإيجابياتها و سلبياتها، ولا يشك أحد أن الفترة الاستعمارية كان لها الأثر الكبير في كتابات كل الكتاب المغاربة، كونها فترة كولونيالية تميزت بسيماتها القاسية التعسفية التي مارستها فرنسا ضد الشعوب المغاربية، من جهة أخرى كانت حافزا قويا للكتاب المغاربة من أجل خوض تجربة رائدة في الكتابة الروائية وبلغة المستعمر، فلم تستطع فرنسا أن تكون حاجزا أمام إرادة هؤلاء لإبراز قدراتهم المعرفية و الثقافية ليقولوا لفرنسا ب؟أننا لسنا فرنسيون، محتفظين بأصالتهم ومنفتحين على مدارس أدبية، وبهذا أصبح لهذا الأدب نماذج متميزة نتاجها القوة الفنية التي تتمتع بها هذه الأعمال وكذا الجرأة التي تميزوا بها. وقد سايروا

في كثير من الأحيان محدثات الأدب العالمي وقد اسيتندوا إلى إرادة إبداعية أصلية و موهبة خارقة و إمكانية فنية عالية وثقافة موسوعية.[14]

الهوامش:

1. مصطفى الورياغلي، الصورة الروائية دينامية التخييل وسلطة الجنس،منشورات العبارة،الطبعة الأولى،2012، الرباط، ص61.
2. ولد إدريس الشرايبي في 15 جويلية1926 يعد من أشهر الكتاب الفرانكفونيين المغاربة، التحق بالمدرسة وتابع تعليمه بثانوية البوطي بالدار البيضاء، درس الكيمياء والطب النفسي بباريس حين سافر إليها سنة إلا أن هذا الشاب سرعان ما شعر بالملل من وظيفته مهندساً، فما كان منه إلا أن غادرها من دون أسف كبير ليتابع دراسات متقطعة في الطب النفسي. وراح في سبيل تأمين معيشته يعمل في عدد من المهن المتواضعة من دون أن يستقر على حال. فعمل حارساً ليلياً وحمَّالاً وعاملاً في أحد المصانع، ثم مدرِّساً للغة العربية ومنتجاً في الإذاعة الفرنسية، وأخيراً وليس آخراً مدرساً للأدب المغربي في جامعة لافال بكندا.1946 أصدر أول رواية له "الماضي البسيط سنة 1954 « **Le Passé Simple** .
3. أحمد العدواني، بداية النص الروائي مقاربة لآليات تشكل الدلالة، النادي الأدبي بالرياض والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2011، ص152.
4. انظر: السيد ياسين التحليل الاجتماعي للأدب، مكتبة مدبولي القاهرة ، ص95
5. عبد المنعم إسماعيل، نظرية الأدب ومناهج البحث الأدبي، القاهرة مصر ، ص56
6. مارشال ماكلوهان (1911 . 1980م). أستاذ وكاتب كندي أحدثت نظرياته في وسائل الاتصال الجماهيري جدلاً كبيرًا، فهو يرى أن أجهزة الاتصال الإلكترونية . خاصة التلفاز. تُسيطر على حياة الشعوب، وتؤثر على أفكارها ومؤسساتها.
7. إدريس الشرايبي، الحضارة أماه، ترجمة محمد الشاوش، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر،ص12
8. إدريس الشرايبي رواية الحضارة أماه.
9. ينظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، الفضاء، الزمن، الشخصية المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ط02، 2009 ص، 249
10. ينظر: حاتم الورفلي، بول ريكور الهوية والسرد،دار التنوير للطباعة والنشر، تونس 2009 ص29.
11. نبيل سليمان، وعي الذات و العالم دراسات في الرواية العربية،دار الحوار للنشر والتوزيع اللاذقية سوريا الطبعة01، 1985.
12. محمد الدغمومي، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، منشورات كلية الآداب، الطبعة الأولى، الرباط، 1999 ص 113.
13. نفسه، ص 113.
14. مصطفى الورياغلي، الصورة الروائية دينامية التخييل وسلطة الجنس،منشورات العبارة،الطبعة الأولى،2012، الرباط، ص 51
15. خليل الجيزاوي، تلاقح الأدب المغربي والمشرقي، مقال منشور على الشبكة.